منهجية عبد الحق فاضل في الترجمة :(*)
يوليوس قيصر لشكسبير

بقلم : الدكتور علي القاسمي

مدير إدارة التربية

المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة

الرباط

كثير هم المفكرون والمبدعون الذين ينتبذون المغرب ملجأ وملاذا، أو يصطفونه سكنا ومقاما، أو يختارونه منتجعا ومزارا، يستهويهم في ذلك شعب كريم نبيل، وتراث حضاري غني أصيل، وطبيعة خلابة آسرة ملهمة. وينتمي هؤلاء المبدعون والمفكرون إلى جنسيات متباينة، ويمارسون فنونا مختلفة، ويقيمون في ربوع متفرقة من المغرب ؛ فمنهم القاص الأمريكي بول بولز في طنجة، والشاعر السوري عمر بهاء الدين الأميري في الرباط، والرسام الألماني هانس فرنر غيرتس في مراكش وطائفة أخرى غيرهم.

وعبد الحق فاضل من هذه النخبة الفكرية التي اختارت مراكش محطا بعد طول ترحال وتجوال في أرجاء العالم شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، ومنطلقا لفكره الوقاد وقلمه السيال شعرا ونثرا وترجمة. وعبد الحق فاضل يعد من رواد القصة والرواية في العراق، ومن خبرائه المعدودين في الآثار واللغات القديمة، ومن لسانييه المتضلعين في علوم المصطلح والمعجم، ومن شعرائه المجيدين، ومن دبلوماسييه المخضرمين، فقد عمل وكيلا لوزارة الخارجية وسفيرا لبلاده في عاصمة الصين، بكين، وهو بالاضافة إلى إلمامه باللغات القديمة كالسومرية والأكدية والهيروغليفية، يتقن اللغات الشرقية : الفارسية والتركية والكردية، ويجيد اللغات الأوربية : الانجليزية والفرنسية والايطالية.

وتتجلى خبرات عبد الحق فاضل المعمقة وثقافته الغزيرة المتنوعة في ما يبدع نثرا وشعرا وترجمة، ولو تصفحنا عناوين بعض ما ترجم لتبين لنا صحة ما رمينا إليه، فهو مترجم ملحمة كلجامش من السومرية مباشرة، ورباعيات الخيام من الفارسية

(*) وجدير بالذكر أن الأستاذ عبد الحق فاضل كان خبيرا متفرغا في مكتب تنسيق التعريب في الفترة من عام 1970 إلى 1976، كما أن الدكتور القاسمي نفسه كان خبيرا متفرغا في المكتب من عام 1978 إلى عام 1982.

رأسا، ومسرحية يوليوس قيصر لشكسبير من الانجليزية الوسيطة.

وهكذا فإننا نرى أنه حتى في الترجمة يتعامل مع القمم، ولا يرضى عنها بديلا، ولا غرو في ذلك فالبطل المغوار لا ينازل إلا بطلا صنديدا يضاهيه إقداما، ويوازيه شجاعة.

ولعبد الحق فاضل منهج متميز في الترجمة، يستحق الدرس والعناية، ويستوجب التأمل والتحليل بغرض تطوير الترجمة بوصفها علما وفنا ومهنة في آن واحد. ولكي نقف على خصائص هذا المنهج، سنستعرض ترجمته لمسرحية (يوليوس قيصر) لوليم شكسبير.

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو : لماذا اختار عبد الحق فاضل ترجمة مسرحية يوليوس قيصر دون سواها من روائع شكسبير الأخرى ؟ لماذا لم تحظ مسرحية (هملت) التي يعدها النقاد قاطبة أعظم مسرحيات شكسبير على الاطلاق بتفضيل المترجم واهتمامه ؟ ويجيب عبد الحق فاضل على ذلك بأنه يختلف مع النقاد والمتخصصين في الدراسات الشكسبيرية في ما ذهبوا إليه، فهو يعتقد جازما أن (يوليوس قيصر)، هي أروع روائع شكسبير، وأن النقاد منذ ظهور المسرحية حتى اليوم لم يفهموها على حقيقتها ولم يفطنوا إلى المعاني الخفية التي دسها شكسبير بين سطورها وفي ثنايا كلماتها.

فشكسبير يعطي في ظاهر هذه المسرحية انطباعا زائفا للقارىء بل وحتى للناقد إذ يجعله يظن خطأ أن (بروتس) هو مثل أعلى للنبل والشرف والنزاهة والشهامة والتضحية، وما إقدامه ـــ بعد التردد ـــ على المشاركة في قتل قيصر إلا من أجل مصلحة الوطن العليا لوضع حد لمطامح قيصر في أن يصبح دكتاتورا مطلق السلطات. أما في باطن المسرحية وعند تحليل نصوصها تحليلا سياقيا ومقاميا وتأويل معانيها الخفية فإن شكسبير يرى في بروتس بؤرة الخسة والنذالة والغباء والجشع، وما تآمره على اغتيال قيصر إلا تعبير عن مطامعه الشريرة غير الشريفة في انتهاز الفرصة للوصول إلى منصب سام بصورة غير شرعية.

ولقد برهنت قراءة عبد الحق فاضل للمسرحية أن شكسبير صور بروتس عظيما شريفا في الظاهر ووغدا وضيعا في الباطن.

إضافة إلى هذا الكشف الأدبي، فإن عبد الحق فاضل يستشف إبداعات ثلاثا أخرى في هذه المسرحية : الأولى،التصوير البارع للأشخاص بحيث يسير المؤلف إلى الحدث من داخل الأشخاص، ويجعل الأشخاص وسيلته لتصوير الحدث لا الحدث وسيلته لتصوير الأشخاص. فالانسان طبقا لهذه المسرحية يصنع مصيره بنفسه واختياره، وليس ضحية المصير والأقدار كما هو الحال في مسرحية (هملت) مثلا. والابداعة الثانية، تفوق شكسبير في التعبير والافصاح في هذه المسرحية عما يحسه من تناقض واضطراب وتصارع في النفس البشرية. أما الابداعة الثالثة التي تتحلى بها مسرحية (يوليوس قيصر) فهي تبوؤها القمة في البلاغة الشكسبيرية، وقد تجلت هذه البلاغة في خطبتي بروتس وأنطونيو التي تستميل أولاهما الجمهور إلى تأييد قتلة قيصر وتسويغ فعلتهم، وتحولهم الثانية أنصارا لقيصر وناقمين على قاتليه.

وليس عبد الحق فاضل بغافل عن روعة (هملت) ، فهو مدرك تماما لخصائصها البلاغية السامقة وبنياتها المسرحية الرائقة، ولكنه مع ذلك يفضل عليها (يوليوس قيصر) لأسباب جليلة القدر خطيرة الفائدة، وهو يقول في ذلك[1].

(1) مع شكسبير في يوليوس قيصر، ص 274-275.

«إن إعجابي بعظمة (هملت) لا ينقضي، لكن (يوليوس قيصر) تفوقها مع ذلك بتقنيتها الخاصة التي رأينا،تقنية (خداع النظر). إنه الساحر في خفة اليد، جعل من مسرحيته أكبر خدعة فنية. تكلم بلهجة «فوسمعية» SUPERSONIC لا تلتقطها الآذن فلم يسمعوه».

ولكي يسوغ عبد الحق فاضل اجتهاده، ويبرهن على صحة ما ذهب إليه من أن النقاد لم يفهموا المسرحية كما أراد لها مؤلفها، ولم يروا أشخاصها على حقيقتهم التي رسمها شكسبير، اضطر إلى كتابة دراسة عن المسرحية تقع في (284 صفحة)، أي ثلثا الكتاب تقريبا قبل أن تقدم ترجمة المسرحية.

وفي هذه الدراسة يبرهن عبد الحق فاضل على أن شكسبير وهب بروتس أريكة وثيرة من الفضائل الزائفة المحشوة بالابر المسمومة والسخرية الموجعة. فالنصوص التي دفعت النقاد على عجل إلى الاعتقاد بأن بروتس رجل نبيل نزيه سامي المبادىء، ينبغي أن تفسر في ضوء الدلائل السياقية والمقامية لنتوصل إلى تفسير جديد لها يظهر بروتس على حقيقته.

ويسوق عبد الحق فاضل أمثلة عديدة من هذه النصوص التي كان يهدف شكسبير من ورائها خداع أبصار النقاد وصرفهم عن الظروف التي قيلت فيها. ومن هذه الأمثلة ما يلي :

أ ــ حين يذهب قيصر إلى مجلس الشيوخ[2] يتقدم إليه متللوس سيمبر راجيا منه أن يعفو عن أخيه المنفي لجريمة اقترفها. فيقول له قيصر[3] : «يجب أن أقاطعك يا سمبر، هذه الانحناءات وهذه المصانعات الوضيعة، قد تلهب دم العاديين من الرجال، وتجعل من القوانين المسنونة والأحكام المبرمة شريعة أطفال...».

وواضح من هذا أن قيصر يصر على احترام القانون وتنفيذ أحكامه. وهنا يتقدم بروتس متشفعا لسمبر قائلا : «أنا أقبل يدك، لكن لا عن ملق يا قيصر، راجيا منك التعجيل بإطلاق يوبليوس سيمبر من المنفى...».

وهكذا يرى بعض النقاد وكثير من القراء في كلام بروتس دليلا على نزاهة بروتس ونبله فهو يقبل يد قيصر لا عن ملق، وإنما عن احترام وإخلاص حقيقيين. ولكن عبد الحق فاضل يرى في كلام بروتس ذاك دليلا على خسته وغدره، فهو يقول ذلك، ويقبل يد قيصر في الوقت الذي يضمر الشر له، ويتأهب لطعنه من الخلف بعد لحظات.

إذن عبد الحق فاضل لا يقرأ المقال منفصلا عن السياق الذي ورد فيه والمقام الذي أحاط به. وماذا كان جواب قيصر على توسل بروتس[4] ؟ كلمتين فقط «ماذا ؟ بروتس !».

كيف يقرأ عبد الحق فاضل هاتين الكلمتين ؟ إنه لا يكتفي بالمنطوق وإنما يتعمق في المفهوم أي أنه يستخدم التأويل المستند إلى السياق والمقال معا للوصول إلى مرامي النص. إنه يرى في هاتين الكلمتين «لماذا ؟ بروتس !» المعنى التالي :[5]

«أأنت بروتس الذي جعلته كبير قضاة الامبراطورية تتنكر للقانون والصالح العام فتتشفع لمجرم نفي بمرسوم ؟ أفتجثو راكعا وتقبل اليد ــ وأنت الذي اتخذتك خليلا وأخا ــ فتتضرع

(2) المرجع السابق ص 354.
(3) المرجع السابق ص 356.
(4) المرجع السابق ص 357.
(5) المرجع السابق ص 200 - 201.

في مقامك الرفيع، بغير داع، على نحو لم يلجأ إليه حتى متللوس صاحب الالتماس الذي زجرته كما رأيت بعينك ؟ أأنت رجل القانون الذي جعلته حارس الحق والعدالة المنافح عنهما، تنضم إلى هؤلاء ضدي، وكان المتوقع أن تضم صوتك إلى صوتي مؤيدا موقفي المشروع العادل بدلا من الدفاع عن باطل المجرم المنفي ؟ وما قيمة أحكام القضاء الذي أنت على رأسه إذا جاز نقضها بالشفاعات وتقبيل الأيدي ؟ أما ترى أني أهنت متللوس سيمبر وشتمته لأنه حاول أن يجعل من القوانين المسنونة والأحكام المبرمة شريعة أطفال ؟ أفتستعير تلك الاهانة لنفسك أنت بنفسك ؟ وفي سبيل ماذا ؟ في سبيل الافراج عن مجرم أنت القاضي حقيق بأن تحكم عليه ؟..».

ولا يكتفي عبد الحق فاضل بالتحليل السياقي والمقامي للنص المسرحي الذي هو بصدد ترجمته، وإنما يضيف بعدا اخر لتحليله ألا وهو تحليل التداعيات العاطفية والإيحاءات النفسية التي يزجيها النص والمقام، فهو يقارن بين قبلة بروتس لقيصر وقبلة يهوذا الأسخريوطي للسيد المسيح علامة يستدل بها أعداء السيد المسيح على شخصه من بين جماعته حين قدموا للقبض عليه بعد أن تسلم لقاء هذه الخيانة فضة رشي بها من الكهنة اليهود. ويقول عبد الحق فاضل «إن أشهر القبلات وأنذلها صيتا هي قبلة يهوذا الأسخريوطي... إن يهوذا الانجيل قبل المسيح على الخد فعل الند، أما يهوذا المسرحية فيقبل قيصر على اليد... ويهوذا الانجيل لم يكن يعلم يقينا ما سيصنعون بالمسيح لكنه لما رأى بعد ذلك أنهم أوثقوه وحكموا عليه ندم على فعلته، ورد الفضة إلى رؤساء الكهنة قائلا إني أثمت إذ أسلمت دما بريئا. ثم مضى فخنق نفسه[6]، أما أسخريوطي المسرحية فلم يكن يعلم فقط أن صحبه المتآمرين سيقتلون قيصر وإنما كان مصمما على طعنه بعد لحظات بسيفه هو أيضا عن قصد وسبق محاكمة إصرار...»[7].

وبعد هذه القراءة المتأنية المتأملة المفلسفة للنص يتأكد لنا أن مقولة بروتس (أنا أقبل يدك، لا عن ملق يا قيصر ...) ليست دليلا على نبل القائل ونزاهته بقدر ما تنم عن خسته وغدره وخيانته، كما يرى عبد الحق فاضل وهو على جانب كبير من الاصابة.

ب — ولا يكتفي عبد الحق فاضل بهذا المثال من النصوص التي صاغها شكسبير بعناية ومكر لخداع بصر النقاد، وليصور بها بروتس رجلا شريفا في الظاهر وضيعا في الباطن، بل يسوق مثلا آخر[8] حينما يتشاجر الشريكان في مؤامرة اغتيال قيصر، وأعني بهما كاسيوس وبروتس، فيذكر بروتس بأن كاسيوس تلكأ في الاستجابة لطلبه أن يمده ببعض المال لمواجهة نفقات الحرب، ويتهم كاسيوس بأنه يتاجر بالمناصب فيبيعها بالذهب لغير مستحقيها أما هو — بروتس — فلا يفعل ذلك بفضل نزاهته التي يتبجح بها قائلا[9]:

«دعني أقل لك يا كاسيوس إنك أنت نفسك جد متهم بحكة الكف تتجر بمناصبك وتبيعها بالذهب لغير مستحقيها !...».

وفي وقت لاحق من المشاجرة يقول بروتس[10] :

(6) إنجيل متى 1/27 - 5.
(7) مع شكسبير في يوليوس قيصر، ص.ص. 201 - 202.
(8) المرجع السابق ص 394.
(9) المرجع السابق ص 394.
(10) المرجع السابق ص 397 - 398.

«ليس في تهديداتك يا كاسيوس ما يخيف، فإن لي من نزاهتي درعا منيعة فيمر بي تهديدك كالريح الخائرة لا أعتد بها. لقد أرسلت إليك أطلب مقادير من الذهب أنكرتها علي، لأني لا أستطيع أن أجمع المال بالدنيء من الوسائل ! لعمر السماء أني لأوثر أن أسك قلبي نقدا، وأسكب قطرات دمي دراهم على أن أستلب من أيدي القرويين الجاسئة حطامهم الحقير بحيلة من الحيل...».

لأول وهلة توحي هذه الكلمات الرنانة إلى القارىء أو المستمع بأن بروتس رجل نبيل نزيه لا يلجأ إلى الحيل الخسيسة لجمع المال بالباطل من القرويين، كما يفعل كاسيوس، ولكن عبد الحق فاضل لا يكتفي بقراءة النص قراءة ظاهرية، وإنما يعمل على تحليله تحليلا منطقيا ليجد فيه دليلا على فساد ذمة بروتس وخسته لا على نزاهته وشرفه، فهذا الرجل الذي يرفض جمع المال بالباطل لا يتردد في مطالبة كاسيوس الذي جمعه بالأساليب الدنيئة بإعطائه شيئا منه، وبعبارة أخرى : إنه لا يسرق المال ولكنه يطلب حصة من مال مسروق.

و لم يقف عبد الحق فاضل في تحليله للنص عند هذا الحد فحسب بل عمد أيضا إلى مقارنة النص المسرحي بالنص التاريخي لبلوتارخ الذي اعتمد عليه شكسبير، فسلط الضوء على حقيقة أن النص التاريخي يشير إلى المشاجرة بين بروتس وكاسيوس ولكنه لا يفصّل وقائعها، أما شكسبير فقد اختار أن يفرد لها مشهدا من مشاهد المسرحية وأورد التهم المتبادلة أثناء المشاجرة ليشرّح المتشاجرين ويجرّحهما أكثر مما جرّحا قيصر وذلك تعبيرا من شكسبير عن مشاعر البغضاء والاحتقار التي يكنها لهما[11].

ويفسر عبد الحق فاضل الفروق القائمة بين وقائع تاريخ بلوتارخ وأحداث مسرحية شكسبير على أنها فروق طبيعية ناتجة عن الاختلاف بين التدوين التاريخي والكتابة الأدبية. «فالتاريخ عند شكسبير ... يشبه الطبيعة عند الرسام، يستلهمها ويفيد لقطات منها. ثم هو يصحح أو يحذف ما يشاء ويزيد ما يشاء. والرسام البارع مثل شكسبير يجعل الطبيعة أكثر أصالة من نفسها. لكنه بوجه عام لا يتقيد بشيء[12].

ج ــ تصور كثير من نصوص المسرحية بروتس بوصفه رجلا حكيما ذكيا متمكنا من فلسفة المشائين ومنطقهم. ولكن أحداثا عديدة في المسرحية صيغت بطريقة تبرهن على عكس ذلك، وكأن شكسبير أراد أن يدلل على غباء بروتس من الأخطاء القاتلة التي اقترفها. ومن هذه الأغلاط قرار بروتس بالسماح لأنطونيو في تأبين قيصر خطابيا بعد اغتياله على الرغم من معارضة بقية المتآمرين الذين خشوا من أن ينزع أنطونيو إلى تأليب الجماهير ضدهم لما يعرفونه فيه من إخلاص لقيصر وتعلق به، وهذا ما حصل فعلا (المشهد الثاني من الفصل الثالث)، وغلطة ثانية من أغلاط بروتس التي تنم عن عدم ذكائه قراره بالسير إلى العدو على الرغم من أن كاسيوس نصحه أن الأفضل أن يتطلبهم العدو فيبدد وسائله وينهك جنوده. وقد ثبت أن قرار بروتس قرار خاطىء نتيجته خسارة المعركة الحاسمة.

هذه بعض الأمثلة التي ساقها عبد الحق فاضل ليبرهن على أن القراءة التحليلية لمسرحية (يوليوس قيصر) تدل على أن شكسبير هو عدو بروتس المتظاهر بالصداقة، وصديق قيصر المتظاهر بالعداوة،

---

(11) المرجع السابق ص.ص. 397 - 398.

(12) المرجع السابق ص 144.

أو على حد تعبيره ــ إن شكسبير هو صديق بروتس اللدود، وعدو قيصر الحميم.

خلاصة واستنتاج :

من خلال العرض السريع الذي قدمته في الصفحات القليلة السالفة لترجمة مسرحية يوليوس قيصر التي أبدعها الأستاذ عبد الحق فاضل، أردت أن أخلص إلى مقومات منهجه في الترجمة وخصائص طريقته في هذا المضمار. ويمكن تلخيص هذه المقومات وتلك الخصائص فيما يلي :

أولا : إن اختيار النص المترجم اختيار انتقائي هادف وواع، فالمترجم يحدد النوع الأدبي الذي يريد تقديمه إلى المكتبة العربية، وينتخب منه أبرز كتابه، ويصطفي من كتاباته أفضلها وأهمها. لأن الثقافات الانسانية متنوعة، زاخرة بالأدباء المبدعين، الذين أنتجوا العديد من المصنفات، ولا يمكن نقل جميع الأعمال الأدبية إلى اللغة العربية، وإنما ينبغي أن ينتخب أهمها فائدة وأبعدها أثرا.

ثانيا : قبل أن يشرع المترجم بقراءة النص ــ بل ترجمته ــ ، يدقق في شخصية المؤلف، ويطلع على حياته الخاصة، ويلم بخلفيته الثقافية، ويقف على توجهاته الفكرية، وميوله السياسية، وآرائه الاجتماعية، ويتعمق في منهجه في التأليف، وطريقته في العرض، وأسلوبه في التبليغ.

ثالثا : ولكي يحقق ذلك، لا يكتفي المترجم بدراسة النص الذي يزمع ترجمته وإنما يعمد كذلك إلى قراءة جميع النصوص الأخرى التي وضعها مؤلف النص، والمقارنة والمفاضلة بينها.

رابعا : عندما ينتقي المؤلف نصا لترجمته، يقوم بفحصه فحصا شاملا لا من حيث بنيته ومضمونه وأسلوبه فحسب وإنما من حيث المصادر التي استقى منها مادته، والمؤثرات التي يلمسها القارىء والناقد على صفحاته.

خامسا : يحلل المترجم النص الذي يروم ترجمته تحليلا شاملا فنيا وجماليا ولغويا، بحيث يقف على مقتضيات المقام ومتطلباته، ودخائل المقال ودلالاته الظاهرة والباطنة، وإيحاءات العبارات النفسية والفكرية، ومرامي المؤلف العاجلة والآجلة.

سادسا : يحدد المترجم مستوى اللغة الذي دون فيه النص الأصلي، ليعمل على مضاهاته في اللغة المنقول إليها. ففي داخل النص المسرحي الواحد مثلا قد يختلف مستوى اللغة بحسب شخوص المسرحية ومكانتهم الاجتماعية والثقافية. فعلى المترجم أن لا يغفل ذلك وينوع طبقا له المستويات اللغوية التي يستخدمها في اللغة الهدف.

سابعا : يؤثر المترجم الدقة المتناهية في تعامله مع كلمات المؤلف وعباراته التي قد يعتبرها غيره حشوا لا يدرك أهميته ولا يأبه لترجمته، وذلك بغية إعطاء النص الأصلي حقه كاملا بدافع الأمانة في النقل والضبط في الأداء، أو على تعبير الأستاذ عبد الحق فاضل[13] :

«ويا ربة كلمة حسبتها زائدة أو قمينة بالتحوير تكشفت لي بعد ذلك عن نكتة فنية أو لمحة فكرية أو مغزى يومىء إلى عبارة سبقت أو حادثة ستأتي».

وإذا قارنا جوانب هذه المنهجية الفريدة التي يسير عليها الأستاذ عبد الحق فاضل في ترجماته الفذة مع الأغلبية الساحقة مما يترجم في وطننا العربي اليوم، يتأكد لنا أن سيادته صاحب نظرية متميزة في الترجمة لها ملامحها المرسومة بعناية، وفيها أسسها المقامة بإتقان، وينبغي علينا أن ندرسها في معاهد الترجمة ونلفت إليها الأنظار في أوساط الأدباء والمترجمين.

(13) المرجع السابق ص 284.